إفريقيا للأفريقيين

المراجع الأجنبية

G. Sergi : Mediteranean Race.

Albert Pingaud : L'Empire Français.

H. G. Wells : The Outlook for Homo Sapiens.

Mancini · La Vie des peuples dans l'Humanité.

W. W. Tarn : Alexander and the Unity of Mankind.

Leon Abensour : Woodrow Wilson.

Clarence K. Streit : Union Now.

Mac Crone : Race Attitudes in South Africa.

A. G. Russell : Colour, Race, and Empire.

Orde Browne : African Labourer.

Huxley and Haddon : We Europeans.

Arther de Gopineau : Traité sur l,inègalite des races humaines.

A. C. *Haddon* : The Races of Mankind.

Gregory : The Menace of Colour.

Maciver : Community.

Steer : Judgment on German Africa.

McDougall : Psychology.

W. E. B. Dubois : Worlds of Colour

James : History of Negro Revolt.

Macmillan : Africa Emegrent.

The Encyclapaedia Britannica : word "Africa."

وغيرها من المراجع المشار إليها فى أبواب « أهداف العمل لمصر » و « مصر مقبرة الغزاة » و « مصر والاقطار العربية »

من الظواهر الجغرافية فى القارة الافريقية أنه لاتوجد فى قلبها حواجز طبيعية تفصل بين شعوبها . وانعدام هذه الحواجز هو الذى ساعد على هجرة القبائل الافريقية من مكان إلى آخر . وامتزاج هذه القبائل والتشابه فى ثقافتها . كما أنه لاتوجد أنواع متباينة من الأجناس المختلفة التى تكوّن سكان هذه القارة الذين ترتفع بينهم نسبة الاجناس الرحالة ارتفاعاً عظيما [١]

وأجناس افريقيا الرئيسية هى .

١ — سكان الغابات والمناطق غير المطروقة [٢]

٢ — الزنوج [٣]

٣ — الحاميون الذين يقطنون شرق القاره [٤]

٤ — الليبيون [٥]

٥ — الساميون [٦]

والقسم الأول من هذه الأجناس يتميز بقصر قامته و بسمرة بشرته سمرة مائلة إلى الاصفرار . وكانوا يقطنون فى بادىء الأمر فى جنوب أفريقية فاضطرتهم قبائل الهوتنتوت [٧] والبانتو [٨] وهى قبائل تقطن جنوب غرب

---

(١) The Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشر — كلمة Africa عند الكلام على الاجناس الافريقية Ethnology

(٢) Bushman

(٣) Negro

(٤) Eastern Hamite

(٥) Libyan

(٦) Semite

(٧) Hottentots

(٨) Bantu

أفريقية ، الى الهجرة فوصلوا إلى بحيرة تنجانيقا . ولاشك أن أوجه الشبه كبيرة بين سكان الغابات وبين « الهوتنتوت » و « البانتو » وهى تبدو فى قصر القامة والبشرة السمراء المصفرة .

أما القسم الثانى وهو الزنوج فيسكنون باقى وسط أفريقيا بما فيه وادى النيل الأعلى ـ باستثناء الحبشة والسومال ـ كما أن هذه المنطقة من وسط أفريقيا تسكنها القبائل الرحالة التى تكونت من امتزاج الليبيين فى الشمال بالعرب الساميين والحاميين فى الشمال الشرقى من القارة . والقسم الثالث من الأجناس الأفريقية وهم الحاميون يسكنون السومال والحبشة ولو أن الأحباش قد امتزجوا بالساميين فتكون من هذا الامتزاج جنس سامى حامى .

والقسم الرابع وهم الليبيون . المعروفون بالبربر [1] يسكنون شمال أفريقيا فى الجزائر ومراكش . وهم شعب أبيض تأثر بالطابع العربى . والقسم الخامس وهم الساميون . يسكنون شمال شرق القارة أى السودان ومصر وما جاورها .

ويجمع الاخصائيون فى علم الاجناس ethnology على أن الشعب الذى أحدث أهم انقلاب «جنسى» فى شعوب أفريقيا هم العرب . ففى الشمال وفى الشرق ترك العرب أثراً واسعا راسخاً بنشر الدين الاسلامى فى جميع أرجاء السودان كما أن هؤلاء الاخصائيين يقررون أن الجغرافية « القسيولوجية » لافريقيا لاتضع عقبات طبيعية فى طريق الحركات « الجنسية » أى رحلة الأجناس المختلفة من مكان إل آخر وامتزاجها [2] ويقررون أيضا أن

---

(١) Berbers

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٦

العرب كانوا منذ عصر ماقبل التاريخ مختلطين بالمصريين وكان نشاطهم باديا فى شمال أفريقيا[١] . وقد ثبتوا اقدامهم على شاطىء أفريقيا الشرقى وكانوا يقوموا بحملات مستمرة لاقتناص العبيد من الداخل حتى وصلوا الى « الكونجو » وليس الجنس المعروف باسم « السواحلى » الذى يقطن شاطىء أفريقيا الشرقى من خط الاستواء الى درجة ١٦ عرض جنوباً إلا مزيجا من العرب و « البانتو »

كما أن الامتزاج بين الليبيين والزنوج قد أثمر جنسا يدين بالاسلام ويقطن شاطىء أفريقيا الغربى من شمال النيجر الى حوض النيل .

١ — والواقع التاريخى الذى لانزاع فيه أن أول ماعرف عن أفريقيا هو نصفها الشمالى فكان اسم افريقيا يطلق بادىء الأمر على البلاد المجاورة لقرطاجة التى أنشئت فى عام ٨٠٠ قبل الميلاد . ولا يزال العرب يطلقون اسم افريقيا على تونس . كما أن المدنية المصرية القديمة هى أول مدنية ظهرت فى القارة الافريقية . والفينيقيون هم أول من استعمر الجزء الافريقى من شاطىء البحر الأبيض المتوسط قبل الميلاد بألف سنة ، والمصريون وأهل قرطاجة هم أول من حاول الوصول الى الجهات المجهولة من القارة بواسطة البحر .

ويروى هيرودوتس المؤرخ الاغريقى أن الملك نيخو Necho الذى حكم مصر عام ٦٠٠ قبل الميلاد قد أرسل بعثة قوامها بحارة فينيقيون طافت حول شاطىء افريقية من البحر الأحمر الى البحر الأبيض المتوسط وقد قضت هذه البعثة ثلاثة أعوام فى اتمام مهمتها .

ومن الثابت تاريخياً أن الرحالة هانو Hanno القرطاجى قد أتم العمل

---

(١) G: Sergi: Mediteranean Race.

الذى بدأه المصريون فى عام ٦٠٠ قبل الميلاد فطاف شاطىء أفريقية الغربى حتى سير اليون فى عام ٥٢٠ قبل الميلاد .

وكما أحدث العرب أهم انقلاب «جنسى» فى شعوب أفريقيا باختلاطهم بأهلها . أحدثوا أيضا أبرز أثر فى تاريخها . وقد بدأ غزو العرب للقارة الافريقية فى القرن السابع الميلادى وهم مؤمنون بالاسلام . وتابعوا الغزو من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى

وفى القرون الثامن والتاسع والعاشر بعد الميلاد كان عدد العرب فى أفريقيا قليلا ولكن هجرتهم إليها زادت فى القرن الحادى عشر وامتزجوا بالبربر الذين كانوا قد أصبحوا يتحدثون باللغة العربية كلغة أصلية ويدينون بالاسلام . وامتد النفوذ العربى إلى الجنوب عبر الصحراء واستقروا فى شرق أفريقيا . واتضح أن العرب كانوا قد وصلوا إليه من قبل واستغلوا أراضيه الغنية كمباسا وزاولوا التجارة فى الوقت الذى كانت تجهل فيه أوروبا كل هذه الأقطار الأفريقية كما كان يجهلها عرب شمال أفريقيا .

ولم يقتصر النفوذ العربى على شمال وشرق أفريقيا بل امتد أيضاً إلى غرب القارة . فأسس الأغلب — وهو أحد قواد هارون الرشيد — الأسرة الأغلبية التى كانت تحكم باسم خليفة المسلمين .

وفى أوائل القرن العاشر تأسست الدولة الفاطمية فى مصر وأنشأت مدينة القاهرة — أكبر مدن القارة — عام ٩٦٨ بعد الميلاد وامتد سلطانها إلى المحيط الأطلنطى .

وقد تجلى فى العرب الذين هاجروا إلى أفريقيا ما امتاز به جنسهم من روح المغامرة والتحمس فى بث الدعوة للاسلام وحفزتهم هذه الميزة على اكتشاف مجاهل القاهرة ، وأعانهم استعمال الجمل فى قطع المسافات الطويلة

عبر الصحراء . فامتد نفوذهم إلى « سنيجامبيا » وحوض النيجر الأوسط ودانت « تمبوكتو » بالاسلام عام ١٥٩١ . ولا شك أن أول وصف علمى لشاطىء أفريقيا الشرقى هو وصف الرحالة « ابن بطوطة » الذى وصل إليه عام ١٣٣٢ وأعطى صورة دقيقة للمدن الاسلامية الزاهرة كمباسا وغيرها .(١)

وفى خلال القرن الخامس عشر الميلادى — وكانت مصر تتزعم جميع البلاد العربية — طاف الرحالة البرتغالى فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ميناء مالندى malindi فى شاطىء شرق أفريقيا عام ١٤٩٨ وكان يخيل إلى الأوروبيين أنهم أسبق الناس إلى اكتشاف هذا الشاطىء ولكن فاسكو ده جاما التقى هناك بالرحالة العربى أحمد بن مجيد وقد استعان الرحالة البرتغالى بما كان يحمله الرحالة العربى من خرط بحرية دقيقة ومن أدوات ملاحية لم تكن معروفة لدى الأوروبيين وقد ظل اسم أحمد بن مجيد إلى أقل من قرن مضى يذكر على أنه أمهر بحار طاف بسواحل أفريقيا الشرقية بل هناك من يذهب الى أنه هو الذى اكتشف البوصلة البحرية (٢)

وظل للعرب — حتى بعد أن بدأت أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية تتطلع الى أفريقيا — فضل السبق فى اكتشاف مجاهل القارة . فقد انشأوا مدينة زنزبار فى الجزيرة التى تحمل اسمها عام ١٨٣٢ ومنها بدأوا رحلاتهم الى بحيرات شرق افريقيا .

---

(١) The Encyclopaedia Britannica — كلمة Afria

(٢) Richard Burton من بحث عن « البحارة العرب » العدد ١٠ السنة ٤ مجلة « المستمع العربى »

وقد تحدثنا فى الباب السابق عن فضل مصر فى اكتشاف منابع النيل وفى وضع أول خرط علمية عرفها العالم من شاطىء شرق افريقيا .

٢ — وكانت البرتغال هى أول دولة أوربية تطلعت أطماعها الاستعمارية إلى افريقيا . فقبل رحلة فاسكو ده جاما كان الأمير هنرى «الملاح» ابن الملك جون قد وصل إلى غينيا فى افريقيا عام ١٤٨٠ كما وصل الى المناطق التى كان قد سبقه العرب إليها بين سوفالا ورأس جرد فوى Guardafui . ولم يلبث أن استولى على مومبيق التى كانت أكبر مدينة إسلامية فى شرق افريقيا .

٣ — وفى عام ١٦٢٠ استولى ضابطان من ضباط شركة الهند الشرقية على خليج المائدة Table Bay باسم الملك جيمس الأول ملك انجلترة بحجة الخشية من أن تحرم المراكب الانجليزية من الحصول على الماء إلا برخصة وتظاهرت لندن إذ ذاك بأنها لاتقر هذا العمل !

٤ — وفى عام ١٦٥١ أرسلت شركة الهند الشرقية الهولندية ثلاث مراكب صغيرة تحت قيادة جان فان ريبيك Jan van Riebeck فوصل الى خليج المائدة فى ٦ ابريل عام ١٦٥٢ وكان وصوله أول استقرار للجنس الأبيض الأوروبى فى هذه المنطقة .

ولعل أدق وصف للأطماع الاستعمارية التى حدت بالدول الأوروبية إلى انتزاع أراضى افريقيا من أهلها الذين كانوا قد امتزجوا فى أغلب أنحائها بالعرب وتأثروا بثقافتهم ودانوا بدينهم ، وتكلموا لغتهم مدة تزيد على عشرة قرون أن أولئك المستعمرين الأوروبيين « لم يهتموا بأهالى القاره أو بأرضهم إلا بالقدر الذى يمكن المستعمرين من الحصول بأبخس ثمن وأقل عناء على

مايملكه أولئك الاهالى أو لنقلهم إلى الخارج ليعملوا كعبيد فى مزارعهم بأمريكا »[١]

٥ — وقد احتلت انجلتره مستعمرة الكاب فى عام ١٨٠٦ وان كانت حرو بها مع نابليون قد عاقتها عن ضمها رسمياً إليها إلا فى عام ١٨١٦ . ولكن اهتمام انجلتره بالتوسع قل عام ١٨٥٤ عند ما منح الاستقلال لبوير نهر أورانج . وكاد هذا الاهتمام ينعدم عام ١٨٦٥ عند ما وافق مجلس العموم بالاجماع على تقرير اللجنة التى انتدبها لبحث شؤون غرب افريقيا فقد نص فى هذا التقرير على أن « كل توسع فى الحصول على أرض أو تولى السلطة وكل معاهدة تقضى بمنح أية حماية للقبائل الوطنية يجب أن يقف كل اجراء بشأنه »[٢] ولكن هذا القرار الذى صدر بالاجماع من مجلس العموم لم يلبث أن تبخر أمام التيار الاستعمارى الذى جرف ساسه انجلتره بعد أن احتلت مصر عام ١٨٨٢ بحجة حماية الخديوى توفيق من ثورة العرابيين . وأصبح الحلم الجميل الذى يداعب خيال المستعمرين الأنجليز هو انشاء خط واحد من الممتلكات ومناطق النفوذ البريطانى يمتد من جنوب افريقيا إلى شمالها . أى من مستعمرة الكاب الى القاهرة .

ولعل أصدق تعبير عن هذه العقلية الاستعمارية هو ماذكره رودس Rhodes — الذى سميت مستعمرة « روديسيا » باسمه — فى مذكراته إذ قرر « إذا كان هناك إله فان مايجب أن يطلبه منى هو أن أصبغ أوسع مساحة ممكنة من خارطة افريقيا باللون الأحمر البريطانى » .

---

(١) The Encyclopœdia Britannica كلمة Africa الطبعة الثانية عام ١٧٩٧

(٢) All further extention of territory or assumption of government, or new treaty offering any protection to native tribes, would be inexpedient.

وكان «رودس» يعلق فى منزله خارطة تنقسم إلى قسمين أعلاهما فيه الهلال المصرى وأسفلهما فيه ألSpringbok أى رمز جنوب افريقيا ، و بين الاثنين العلم البريطانى وهو يشير بذلك إلى مشروع وصل شمال افريقيا بجنوبها بسكة حديدية تمر فى أراضٍ بريطانية وكان يرى أن إنشاء هذه السكة يحقق حلم انجلتره فى السيادة على افريقيا من الشمال إلى الجنوب (١)

كما أن خير تحليل لحقيقة الدوافع التى حفزت المكتشفين الى ارتياد مجاهل افريقية هو ما كتبه أميل لودفيج عن رحلة الرحالة الامريكى ستانلى الذى أوفدته انجلتره إلى مديرية خط الاستواء بحجة انقاذ أمين باشا مديرها المصرى بعد أن انقطعت الصلة بينه و بين القاهرة بسبب ثورة المهدى فى السودان إذ قرر « هل كان يُعنى هذا الرجل الحديدى ـ مهما كانت تقواه ـ هل كان يُعنى محطم الصخور كما كان الزنوج يدعونه عند ما كان يرغمهم على تحطيم الصخور القائمة عل شاطىء النهر — هل كان يُعنى ستانلى بانقاذ حياة الزنوج ، أليس هو الذى كان يطارد الزنوج بمدفع الرجل الأبيض وقبضه يد الفاتح ؟ لم إذن يحشد كتبه بالاشارة إلى مبادىء المسيحية والحب الأخوى وهى المبادىء التى لم يشعر بها قط ؟ .. إن ستانلى كان ينظر دائماً الى الرجل الأسود نظرته الى عدو » (٢)

وقد بلغ الأمر فى استعمار أوروبا لأفريقيا إلى حد اعتبار أراضى هذه القارة ضياعاً للدول الأوروبية المستعمرة تباع وتشترى بعدمساومة بين البائع

---

(١) Emile Ludwig : Genius and Character من دراسة عن Rhodes ص ٨٩ و ٩٢

(٢) Rmile Ludwig : Cenius and Garactea من دراسة عن Stanley ص ٧٠ و ٧٥ .

والمشترى على تحديد الثمن . فقد دفعت انجلترا إلى البرتغال فى عام ١٨٧٦ تسعين ألفاً من الجنيهات مقابل تعديل الحدود بينهما تحديداً من مقتضاه عد « كمبرلى » وحقول الماس التى بها أرضاً انجليزية . وفى ١٢ ابريل عام ١٨٧٧ أعلنت انجلتره ضم الترنسفال إليها بعد أن كانت معروفة باسم «جمهورية جنوب افريقيا »

٦ — وبدأت بلجيكا ترنو الى القاره الافريقية البكر . فدعا الملك ليوبولد فى سبتمبر عام ١٨٧٦ الى مؤتمر عقد ببروكسل وحضره ممثلو بريطانيا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا لبحث « خير الوسائل لاكتشاف وتمدين افريقيا وفتح داخل القارة للتجارة والصناعة ! » . وقرر المؤتمر إنشاء « الجمعية الدولية الأفريقية » The International African Association وأسست كل دولة من الدول التى مثلت فى المؤتمر لجاناً فرعية كان مفروضا أن تتعاون فى العمل ، ولكن الأطماع الاستعمارية جعلت تلك اللجان تعمل منفردة ومستقلة عن الجمعية ولم يتحقق الأمل فى جعل تقدم افريقيا ملحوظاً فيه صالح الدول المؤتمرة معاً . وانتهى الأمر بأن أصبحت الجمعية بلجيكية وتحولت أخيراً الى إنشاء دولة الكونجو الحرة تحت سيادة الملك ليوبولد الشخصية ، وقد زعم ستانلى الذى أرسله الملك ليوبولد لاكتشاف منابع الكونجو بأن مهمته هى « بذر المؤسسات المتمدينة على شاطىء النهر وغزو القارة غزواً سلمياً وصياغتها فى قالب ينسجم مع الأفكار العصرية وإنشاء مقاطعات وطنية يستطيع التاجر الأوروبى أن يتبادل فيها الاتجار مع الافريقى الأسود على أن تسود علاقتهما فكرة العدالة والقانون والنظام »

ولكن هذه المبادىء لم تلبث ان انهارت أمام الأطماع الاستعمارية.

فاصطدم ستانلى ـ الذى أنشأ مدينة «ليو بولدفيل» نسبة الى الملك ليو بولد ـ بالمكتشف الفرنسى سافورنان ده براتزا Savorgnan de Brazza الذى كان قد أرسله الفرع الفرنسى للجمعية الدولية الافريقية فأنشأ «برازافيل» ـ نسبة إلى اسمه ـ واتفق مع حاكم من الحكام الوطنيين زعم أن سيادته تمتد الى المقاطعة التى اكتشفها ستانلى .

٧ — وفى ابريل عام ١٨٨٤ وجه الأمير بسمارك مستشار الدولة الألمانية رسالة بواسطة القائم بأعمال السفارة الألمانية فى لندن إلى الحكومة الانجليزية يخبرها فيها بأن الدكتور جوستاف ناتشيجال Gustav Nachtigal القنصل الألمانى العام موفد فى مهمة إلى شاطىء غرب أفريقيا لاتمام المعلومات التى لدى وزارة الخارجية الألمانية عن حالة التجارة الألمانية هناك ... ولكن لم تلبث ألمانيا أن أعلنت فى ٥ يوليو عام ١٨٨٤ أنها وقعت معاهدة مع ملك توجو Togo وضعت فيها مملكته تحت الحماية الألمانية . وبعد أسبوع وضعت الكمرون تحت الحماية الألمانية هى الأخرى .

وفى نفس ١٨٨٤ تألفت فى ألمانيا جمعية للاستعمار الألمانى وقد اندمجت هذه الجمعية فى عام ١٨٨٧ مع « الجمعية الالمانية الاستعمارية » German Colonial Society التى كانت قد ألفت عام ١٨٨٢ . وفى ٤ نوفمبر عام ١٨٨٤ وصل إلى زنزبار ثلاثة شبان ألمان زعموا أنهم سياح — وهذا دليل على أن التقليد الذى اتبعه الجستابو الألمانى فى الحرب العالمية الأخيرة من التسلل إلى الدول التى لألمانيا رغبة فى البطش بها قبل إيقاع هذا البطش ، يعود إلى التاريخ البعيد — وتنكروا فى زى ميكانيكيين مع أنهم كانوا فى الحقيقة أعضاء فى جمعية الاستعمار الألمانى وكانوا يحفون أعلاماً ألمانية وكمية وافرة من صيغ معاهدات معتزم عقدها مع الحكام الوطنيين

تقضى بوضع بلادهم تحت الحماية الألمانية أو ضمها إلى ألمانيا !

وقد عقدت الدول الأوروبية التى لها أطماع استعمارية فى أفريقيا فى أواخر عام ١٨٨٤ مؤتمراً ببرلين انتهى إلى عقد معاهدة وقعت فى ٢٦ فبراير عام ١٨٨٥ نص فيها على أن الدول الموقعة تتعهد عند الحصول على جزء جديد من أراضى أفريقيا أو عند إعلان الحماية عليه بأن تعلن ذلك إلى باقى الدول الموقعة ! ولكن بينما كان المؤتمر منعقداً وقعت معاهدة فى «مبوزينى» Mbuzini ورفع العلم الألمانى للمرة الأولى فى شرق أفريقيا

٨ — وكان الرأى العام الفرنسى بعد الحرب السبعينية يميل إلى تركيز كل المجهود الحربى الفرنسى للثأر من ألمانيا بعد الويلات التى مرت به عام ١٨٧٠ و إلى أن توزيع قوى الجيش الفرنسى خارج فرنسا ليس فى صالح الدفاع الوطنى عنها . ولكن لما تولى جول فافر الوزارة تبين — كما يزعم المؤرخون الفرنسيون — « أن مستقبل فرنسا يحتم اتباع سياسة التوسع الخارجى فى اتجاهات أربع هى تونس والكونجو ومراكش والهند الصينية» ومن العجيب أن هؤلاء المؤرخين يرون أن ذلك الاتجاه فى الرأى العام الفرنسى الذى أشرنا اليه كان يدعو الى الأسف لأنه لم يمكن فرنسا من التوسع فى الاستعمار ! (١)

ومما يثير ذعر الضمير الانسانى أن أراضى أفريقيا كانت تقسم بين الدول الأوروبية على موائد المؤتمرات دون أى نظر إلى إرادة أهلها كأنهم عبيد تنتقل ملكيتهم إلى الدول التى يرسو عليها مزاد الأرض التى يسكنونها . أو الدول التى ترى الشهوات « الديبلوماسية » أن تنال تلك

---

(١) Albert Pingaud — من بحث عن L'Empire Français فى « لاروس الشهرى » عدد ابريل عام ١٩٤٠ ص ٦٠٩ .

الأرض دون غيرها . فان بسمارك قد « عرض امتلاك تونس على فرنسا »[1] فلم تلبث قوة فرنسية صغيرة أن احتلت تونس ووقعت مع « الباى » معاهدة «باردو» Bardo فى مايو عام ١٨٨١ التى بمقتضاها قبل الباى وضع بلاده تحت الحماية الفرنسية !

وقد تبين المستعمرون الفرنسيون أن احتلال فرنسا لأعالى النيل يمكنها من استعادة مركزها فى الشؤون المصرية . وهو المركز الذى فقدته بعد اشتراكها مع انجلترة فى التدخل لقمع الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ولذلك عقدت مع دولة الكونجو الحرة الخاضعة لسيادة ملك بلجيكا معاهدة فى ٢٧ ابريل عام ١٧٨٧ تنازلت فيها الأخيرة لفرنسا عن الأراضى الواقعة شرق نهر أو بانجى Ubangi

وفى ٢١ مارس عام ١٨٩٩ — عقب حادث الضابط مارشان فى فاشودة — أعلن التصريح الانجليزى الفرنسى الذى تحققت به أطماع فرنسا فى وصل ممتلكاتها فى شمال أفريقيا وغربها ووسطها بعضها بالبعض الآخر — فى مقابل انسحابها من وادى النيل .

وكانت فرنسا قبل ذلك قد استولت على تمبوكتو عام ١٨٩٣ وفى نفس العام على داهومى بعد أن تغلبت على مقاومة ملكها « بيهانزين » Behanzin وقبضت فى عام ١٨٩٨ على الملك « ساموری » Samory الذى كان أهم خصم لفرنسا فى تلك المنطقة و بذلك تم لفرنسا انشاء « افريقيا الغربية الفرنسية » بين عامى ١٩٠٢ — ١٩٠٤

ولكن لما رأت انجلترة تسرب النفوذ الفرنسى من شاطىء افريقيا

---

(١) المرجع السابق

الغربى إلى داخل القارة تقدم الانجليز من النيجر ومن لاجوس ومن ساحل الذهب الذى كان تحت الحماية الانجليزية فتجدد الخلاف بين الدولتين ولكنه حسم فى الاتفاقية التى عقدت بباريس فى ١٤ يونيو عام ١٨٩٨ بين سير ادموند مونسون Sir Edmund Monson ومسيو هانوتو Hanotaux

وكما أن حلم انجلتره الاستعمارى فى افريقيا من انشاء خط من الممتلكات البريطانية والبلاد الواقعة تحت النفوذ البريطانى من مستعمرة الكاب إلى مصر قد بددته ألمانيا باستيلائها على مناطق تقطع هذا الخط ، فان حلم فرنسا الاستعمارى فى نفس القارة من بسط نفوذها على «حزام» من الأراضي يمتد من الغرب الى الشرق . من السنغال على المحيط الاطلنطى إلى «أوبوك» Obock على البحر الأحمر حيث أنشأت فرنسا مدينة عام ١٨٨٤ قد بددته انجلتره بالتصريح الذى أعلنته الدولتان فى ٢١ مارس عام ١٨٩٩ بعد حادث «فاشودة»

* * *

هذا موجز سريع لتاريخ استعمار أوروبا لافريقيا . وهو تاريخ حاشد بالأمثلة الناطقة على تجرد المستعمرين من كل عاطفة نبيلة نحو أهالى القارة الأصليين وعلى جشع أولئك المستعمرين فى الاستيلاء على أكثر ما يمكنهم الاستيلاء عليه من خيرات القارة . وهو تاريخ تقضى الصراحة بأن نقرر أنه لا يشرف المدنية الأوروبية قط . فان المستعمرين البيض الذين تزخر كتبهم بالاشارة إلى مبادىء الحرية والمساواة والديموقراطية لم يفكروا فى محاربة النخاسة فى مستعمراتهم الافريقية إلا بعد أن خطت مصر الخطوة الأولى فى محاربتها بالفرمان الذى أصدره الخديوى اسماعيل فى أول ابريل عام ١٨٦٩ والذى عهد به الى سير صمويل بيكر القضاء على النخاسة فى كل

المناطق التى يمتد إليها النفوذ المصرى . فبعد انقضاء تسعة عشر عاماً على بدء مصر جهادها التاريخى لمحو النخاسة تحركت أوروبا فى خريف عام ١٨٨٨ بدعوة وجهها لورد سالسبورى إلى ملك بلجيكا يعرض عليه فيها عقد مؤتمر فى بروكسل لبحث الوسائل « لالغاء تجارة الرقيق فى افريقيا الغاء تدريجياً وغلق أسواق النخاسة الخارجية التى تستورد العبيد من افريقيا حالا » وقد أصدر ذلك المؤتمر قراره فى ٢ يوليو عام ١٨٩٠ فكان مما جاء فيه « وضع نهاية للجرائم التى نتجت عن الاتجار فى عبيد افريقيا وحماية سكان افريقيا الاصليين حماية فعلية من الانقراض »

فاذا نظرنا الى خارطة افريقيا وجدنا ان مساحتها تبلغ ١١ر٤٥٨ر٨١١ ميلا مربعاً . تسكن الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها العظمى بالاسلام نصف هذه المساحة . فمصر والسودان تبلغ مساحتهما ١ر٦٠٠ر٠٠٠ ميل مربع واوغندة — اى مديرية خط الاستواء المصرية — مساحتها ١٢٥ر٠٠٠ ميل مربع وممتلكات فرنسا الافريقية تسكنها كلها تلك الشعوب وتبلغ مساحتها ٣ر٨٦٦ر٩٥٠ ميلاً مربعا ، وممتلكات إيطاليا — إلى ماقبل الحرب الأخيرة — كلها تسكنها نفس تلك الشعوب وتبلغ مساحتها ٦٠٠ر٠٠٠ ميل مربع وهى مجموع مساحة اريتريه والصومال الايطالى وطرابلس . فاذا أضفنا الى ذلك الدول الافريقية الثلاث المستقلة وهى « ليبيريا » ومراكش والحبشة التى مجموع مساحتها ٦١٣ر٠٠٠ ميل مربع لوجدنا أن هذه الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها بالاسلام تقطن مساحة تبلغ نحو سبعة ملايين ميل مربع وعلى وجه التحديد تبلغ ٦ر٨٠٤ر٩٥٠ ميلا مربعاً تقع شمال خط الاستواء . أما باقى افريقيا الذى يقع جنوب هذا الخط

فتقطنه شعوب آرية تدين غالبيتها بالمسيحية وتتكلم لغات أوروبية متشابهة كالهولندية والانجليزية والألمانية

ولا شك أن الوضع السياسى الحالى لافريقيا يتنافى منافاة تامة مع المبادىء السياسية الدولية القويمة التى نبتت منذ عدة أجيال والتى تطورت مع الزمن فارتفعت الى مرتبة العقائد عقب الحرب العالمية الماضية . ثم ارتفعت خلال الحرب العالمية الأخيرة إلى مرتبة الايمان . تلك المبادئ التى تقر لكل مجموعة من الشعوب ، تجمع بينها وحدة الجنس واللغة والدين، بأن تقرر مصيرها بنفسها دون تدخل أجنبى وأن تعيش الحياة التى تناسبها وتتفق مع مصالحها الخاصة وتمكنها من التعاون تعاوناً مثمراً خيراً حراً مع المجموعات العالمية الأخرى .

ولكن الدول الأوروبية المستعمرة رغم تبنيها سمو تلك المبادىء لم تشأ مطلقاً محاولة تطبيقها فى أفريقيا خشية المساس بمصالحها الخاصة . لأن ضعف أفريقيا السياسى والاقتصادى هو الهدف الذى يرمى اليه الاستعمار و «الجماعات الأوروبية تنتهز وقت ضعف الشعوب الشرقية للحصول على مراكز قوية فى الميادين السياسية والاقتصادية وعلى امتيازات تجارية وأرض خصبة ولاطالة مدة الضعف الذى ينتاب الجماعة الشرقية وهى فى دور التكوين وأن أكبر نفع يعود على الجماعة الشرقية من الاستقلال السياسى هو أنه يمكنها من حماية نفسها من الضعف الذى يبدو عادة فى فترة التطور و يفسح المجال أمامها لتسخير موارد الدولة وقوتها التشريعية ووسائل تنظيمها فى خدمة التقدم الثقافى والاقتصادى . على حين أن البلاد الواقعة تحت الحماية أو الانتداب أو غيرهما من أشكال التوسع الاستعمارى تبرك بلا حماية فى وقت

هى أحوج ماتكون فيه الى الحماية وذلك يعود بأبلغ الضرر على تقدمها فى المستقبل [١].

وكانت الدول المستعمرة تزعم دائما أنها توطد أقدامها فى الأراضى المستعمرة لتنقذ أهلها الأصليين من استبداد حكامهم بهم ولتنشر العدل والمدنية بين ربوعها.. ولكن المفكرين المنصفين من الأوروبيين أنفسهم أبوا أن يقبلوا هذا الزعم المضلل وكشفوا الستار عما يخفيه خلفه . وضربوا مثلا على ذلك شعبا من الشعوب التى لاتزال تعيش على الفطرة هو شعب «جينيا الجديدة» الذى وضع بعد الحرب العالمية الماضية تحت انتداب استراليا . فان عدد أفراد هذا الشعب لايعدو نصف مليون يعيشون فى جماعات مستقلة . كل تعتز بعاداتها الخاصة ولها مميزاتها الفنية والاجتماعية وكانت الى وقت وضعها تحت الانتداب تحل مشاكلها الناشئة من تزايد عدد السكان بشن حروب فيما بينها لم تكن آثارها مدمرة إلى الحد الذى يقضى على كيانها وسرعان ماتستقر الأمور فى نصابها بعد تلك الحروب فلما تولت حكومة « كانبيرا » الأمر منعت تلك الحروب ولكن اخضاع ذلك الشعب للاستغلال الاقتصادى ربما عاد عليه بمآس يفوق ضررها ما كانت تعود به الحروب التى كان يخوض غمارها [٢] .

كما ضربوا مثلا بايران قبل نهضتها الأخيرة وقرروا أنه من الواضح للعيان أن سياسة الأوروبيين المتوحشة التى توحى بها الأثرة مع افتقار الحكومة الوطنية إلى الكفاءة هما السببان اللذان دفعا بذلك القطر الى الخراب

---

(١) Hans Kohn : Western Civilisation in the Near East p. 90

(٢) H. G. Wells : The Outlook for Homo Sapiens P. 29

الاقتصادى والاجتماعى [١] وأن تاريخ تلك الفترة فى إيران هو مثل لما كان يجرى فى سائر أقطار الشرق .

وقرر الثقة فى تاريخ الاستعمار الأوروبى لافريقيا والشرق الأدنى أن بعض الحكومات الأوروبية والجاليات الأجنبية التى لها مصالح كبيرة تعتمد الابقاء على النظم الرجعية القديمة فى جميع الأقطار التى يمتد اليها نفوذها [٢] وهم يردون على ما يزعمه بعض المستعمرين الأوروبيين من أن المدنية الاسلامية قد تسببت فى تقهقر الشرق بأن « الأثر الثقافى العظيم الذى أحدثه العالم الاسلامى فى المسيحيـة لا يزال يبدو إلى اليوم فى الكلمات التى لا حصر لها ذات الأصل العربى التى توجد فى لغاتنا الأوروبية . ولم يقف ذلك الأثر على المنتجات المادية التى انتقلت إلينا من الشرق بل إن الخطوط العريضة لحياتنا الاقتصادية . والمثل العليا لفروسية القرون الوسطى بما فيها شعر الحب الذى كان يتغنى به النبلاء الألمان Minnesingers قد انتقلت إلينا أيضاً من ذلك الشرق واتخذت مظهراً أوروبيا . كما أن أساس كل تعليمنا فى العلوم الطبيعية ، حتى الآراء الجديدة فى الفلسفة وعلم الأديان التى أحدثت أثراً كبيراً أتت إلينا خلال ذلك العصر من الاسلام . ولم يكن تغلب الغرب على الشرق راجعاً إلى تفوق الغرب وإنما إلى تفـكك وحدة العرب واتساع امبراطوريتهم اتساعاً كبيراً »[٣] .

---

(١) رأى Hans Heinrich Schader فى كتاب Morgan Shuster الذى أسماه The Starngling of Persia

(٢) Hans Kohn المرجع السابق ص ٩٦

(٣) المرجع السابق ص ٤٨٠

ولا شك أن الدعوة إلى اقرار مبدأ «أفريقيا للافريقيين» على أساس تقسيم القارة الأفريقيـة إلى مجموعتين من الشعوب . إحداهما الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين بالاسلام والأخرى الشعوب الآرية التى تتكلم لغات أوروبية وتدين بالمسيحية تجد ما يدعمها من نفس الفكرة الاسلامية لأن الغرض من هذه الدعوة هو اقرار المبدأ الديموقراطى الذى يرد لأفراد كل مجموعة من المجموعتين الأفريقيتين حقهم الانسانى فى الحرية ، وإبعاد كل تدخل أجنبى ، ورفع العار الذى وصم الأفريقيين منذ اعتبرت قارتهم مباءة للاستعمار ، وضيعة للمستعمرين ، وسلعة تباع وتشترى بما عليها من الآدميين . وذلك الاستعمار هو الذى خلق تلك التعبيرات المذلة التى لا تزال تزخر بها الكتب الأوروبية والتى تفرق بين «الأبيض» و« الأسود » و « السيد » و « العبد » . ولعل أدق وصف لما يتضمنه الاسلام من ديموقراطية هوماقرره أحد المستشرقين الثقاة فى تاريخ الشرق إذ قرر « أن روح المساواة الأخوية بين كل المسلمين تسود الاسلام ، وهذه الروح أخذ بها الغرب ودرسها ولكنها غريبة عن طريقة الحياة فى المسيحية والصلف الجنسى ، أى الاعتزاز بجنس معين ، كان لا وجود له فى الاسلام فكل من آمن بالله يقبل كأخ له نفس الحقوق التى لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أم من الجنس الأصفر أو أوروبياً . ونجاح الاسلام العظيم فى أفريقيا إلى اليوم يعود إلى هذه الروح »[1]

١ — وتقسيم العالم إلى مجموعات حرة ذات سيادة تكون كل منها أمما متحدة فى الجنس والدين واللغة ليس بدعة . بل إن فكرة إزالة

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

الفوارق بين أفراد الجنس البشرى قد نبتت فى أفريقيا . وفى مصر على وجه التحديد . وكانت أوسع مدى مما ندعو إليه . فقد كان الاسكندر الأكبر بعد أن نقل عاصمة أمبراطوريته إلى الإسكندرية « أول من دعا إلى تحقيق أسمى انقلاب فى شكل العالم ، وأول رجل عرف لنا فكّر فى أن الناس إخوة وفى وحدة الجنس الإنسانى »[١] .

٢ — وليس هذا البحث مجال التوسع فى شرح تطور هذه الفكرة التى ترمى إلى إزالة الفوارق بين أفراد الجنس البشرى . ويكفى أن نذكر أن هذه الفكرة قد اتخذت شكلا خاصاً فى منتصف القرن التاسع عشر . عند ما دعا باسكال مانشينى Mancini فى المحاضرات التى ألقاها على طلبته بجامعة تورين عام ١٨٥١ فى القانون الدولى العام إلى اعطاء كل أمة تجمع بين أفرادها رابطة الجنس واللغة والأفكار الحق فى أن تتحد لتصبح دولة وأن كل دولة تتكون من أفراد ليست بينهم تلك الرابطة إنما تقوم على الاستبداد والعدوان وهذه النظرية من أهم المبررات التى استند إليها جاريبالدى فى توحيد إيطاليا وفصلها عن النمسا[٢] وكانت بعض شعوب أوروبا فى ذلك العهد ترزح تحت نير استبداد بعض الدول العظمى التى تفرض على تلك الشعوب التى تختلف عنها جنساً ولغة ودينا جنسيتها وسيادتها فآمن بتلك النظرية البلجيكيون وروج لها علامتهم لوران Laurent الذى قرر أن الأمم من عند الله les nations sont de Dieu فلا يملك الانسان أن يتحكم فى مصير

---

(١) W. W. Tarn: Alexander and the Unity of Mankind

(٢) Mancini : La Vie des peuples dans L'Humanité

٣ – وفى ٨ يناير عام ١٩١٨ أعلن الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson مبادئه السامية فى تنظيم العالم وهى المبادىء التى تقوم على أساس الاعتقاد بامكان الوصول بأفراد الجنس البشرى إلى الكمال وبامكان بناء عالم أمين جدير بالسكنى sûr et habitable عالم لا تعيش فيه الشعوب كالذئاب تفترس الشعوب الأخرى . وقد رأى ويلسون أنه لبناء هذا العالم الجديد يجب البدء بالقضاء على قلاع الاستبداد القديمة وعلى الحكومات التى تستند فى حكمها إلى الطغيان . ثم دعوة كل الأمم الديمقراطية إلى نبذ السياسة القديمة التى كانت تحبذ عقد محالفات خاصة بزعم المحافظة على التوازن الدولى ، مع أن تلك المعاهدات فى الواقع تحمل بين سطورها جراثيم الحروب . وهذه المبادىء التى دعا إليها ويلسون يعود أصلها البعيد إلى روح الأخاء العظيمة والرغبة فى السمو اللتين أوحيتا إلى المهاجرين بالهجرة إلى العالم الجديد وإلى حب الحرية والشعور بقداسة حق الشعوب . وهذه المبادىء تتأثر أيضاً بفلسفة التاريخ الأمريكى . ذلك التاريخ الذى صنعه خليط من الشعوب تنشب بينها الحروب فى الأراضى التى أنجبتها ومع ذلك فهى متماسكة متحدة فى شعب واحد تحت السماء الجديدة التى أظلتها [١] .

٤ – ولكن جذوة الدعوة إلى « الويلسونية » عقب الحرب العالمية الماضية خبت بسبب أطماع الدول الأوروبية المستعمرة فترة من الزمن ثم لم تلبث أن اضطرمت بعدئذ فى مؤتمر مونتفيديو عام ١٩٣٣ الذى

---

(١) Leon Abensour : Woodrow Wilson, Larouse Mensuel, Avril 1924, P. 442.

ضم ممثلين للجمهوريات الأمريكية فقد « أكدت هذه الجمهوريات يقينها وتشبثها بطائفة من المبادىء الأساسية التى يقوم بمقتضاها التعاون بين الأمم ويستقيم النظام الدولى على أساسها ومن بين هذه المبادىء المبدأ القائل بأن كل أمة صغيرة كانت أمة كبيرة تتساوى مع الأمم الأخرى أمام القانون ، وثمة مبدأ آخر هو حق كل أمة فى إحداث أى تطور فى مقوماتها وأنظمتها دون أى تدخل من جانب الدول الأخرى »[١] .

٥ — وفى ١٤ أغسطس عام ١٩٤١ عقد على ظهر السفينة بوتوماك ميثاق الأطلنطى Atlantic Charter بين الرئيس روزفلت ومستر تشرشل تقرر فيه

« ا — أن البلدين لا يجريان وراء توسع إقليمى أو غيره .

ب — أنهما يرغبان فى ألا يحدث أى تغيير إقليمى لا يتفق مع الرغبات الحرة لأهل البلاد التى يعنيها الأمر .

ج — أنهما يحترمان حقوق كل شعب فى اختيار شكل الحكومة التى يعيش فى ظلها و يرغبان فى أن يريا حقوق السيادة والحكم الذاتى قد ردت إلى أولئك الذين حرموا منها قهراً »[٢] .

٦ — وعقب مؤتمر موسكو الذى عقد من ١٩ الى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٤٣

---

(١) تلخيص مستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة لقرارات مؤتمر موسكو فى خطبته يوم ١٥ ابريل عام ١٩٤٤ فى اتحاد الأمم الأمريكية .

(٢) They respect the right of all peoples to choose the form of government under which they will live , and they wish to see sovereign rights and self — government restored to those who have been forcibly deprived of them.

قرر مجلس الشيوخ الأمريكى أنه « يرى من الضرورى أن ينشأ فى أقرب وقت ممكن نظام دولى عام أساسه المساواة فى السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام وتفتح عضويته لجميع الدول المحبة للسلام صغيرة كانت أو كبيرة وذلك من أجل المحافظة على السلام والأمن بين الدول » وقد عرف هذا القرار باسم مقترحه عضو مجلس الشيوخ مستر كونالى Conally

وقد جاء قرار « كونالى » مؤيدا لقرار مشابه لهأصدره مجلس النواب وعرف باسم قرار «فولبريت » Fulbright .

٧ — صرح مستر سمنر ويلز وكيل وزارة الخارجية فى خطاب ألقاه بفندق « وولدورف آستوريا » فى أواخر عام ١٩٤٣ بمناسبة الاحتفال بانقضاء خمسة وعشرين عاما على تأسيس « جمعية السياسة الخارجية » بعد أن لزم الصمت أحد عشر عاما بسبب قيود وظيفته فقال « إننى مقتنع بأن كل تنظيم دولى يجب أن يقوم على الأساس الآتى وهو أنه « لا حق لأى شعب فى حكم شعب آخر وأن الشعوب التى لها حقوق على شعوب أخرى يجب أن تعترف بأن رقابتها عليها ينبغى قبل كل شىء أن توجه لتحقيق غرض واحد وهو إعداد تلك الشعوب الأجنبية عنها للاضطلاع بتبعات الحكومة المستقلة فى أسرع وقت ممكن » .

٨ — خطب مستر أنتونى إيدن وزير الخارجية الانجليزية فى مجلس الكنيسة الحرة فى أواخر شهر ابريل عام ١٩٤٤ فقال « إن الأمم المتحدة تقبل أن يتألف العالم بعد الحرب من جماعة تضم الدول المستقلة ولكن ينبغى ألا يخطر فى البال قيام دولة عليا تشمل الجميع » .

٩ — قرر مستر كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة فى

خطابه التاريخى الذى ضمنه مبادئه الستة لاقرار السلام بعد الحرب .

« ا — أن الحرية حق مقرر لكل أمة استطاعت أن تثبت أنها صالحة لأن تتقلد وتتحمل التبعات التى تفرضها الحرية .

ب — أن كل دولة صاحبة سيادة — صغيرة كانت أو كبيرة — هى فى القانون و بمقتضى القانون مساوية تماما لكل دولة أخرى .

ج — جميع الأمم — صغيرة كانت أو كبيرة — التى تحترم حقوق الدول الأخرى لها الحق فى أن تتحرر من أى تدخل فى شؤونها الداخلية بواسطة أية دولة أجنبية » .

١٠ — وقد جاء فى مؤتمر يالتا الذى عقد فى فبراير عام ١٩٤٥ بين الرئيس روزفلت ومستر تشرشل والماريشال ستالين أن « لجميع الشعوب الحق فى اختيار شكل الحكومة التى ستعيش فى ظلها وأن تعاد حقوق السيادة والحكم الذاتى إلى الشعوب التى سلبتها منها الأمم المعتدية » وإن كان هذا القرار قد جاء منصرفاً إلى دول أوروبا المحررة إلا أن منطق المبادىء السامية التى أوحت إلى ساسة العالم بوضعه لا يمكن أن يفرق عند تطبيقه بين أوروبا وغيرها من قارات العالم . . .

١١ — وقد عقدت الدول الأمريكية مؤتمراً من ٢١ فبراير إلى ٨ مارس عام ١٩٤٥ لبحث مشاكل الحرب والسلم بمدينة المكسيك وكان من أهم نتائج هـــــذا المؤتمر التصريح المعروف باسم تصريح « شابولتبيك » The Act of Chapultepec وقد نص فى البند الخامس منه على :

ا — تحريم غزو الأراضي وعدم الاعتراف بأى امتلاك لأراض

ضمت بالقوة (أول مؤتمر لدول أمريكا عام ١٨٩٠)

ب — إنزال العقاب بكل دولة تتدخل فى الشئون الداخلية لدولة أخرى (المؤتمر الدولى السابع لدول أمريكا ١٩٣٣ ومؤتمر لدول الأمريكية للمحافظة على السلم ١٩٣٦) .

وكان من نتيجة مؤتمر ١٩٤٥ المشار إليه أن صرحت الدول المشتركة فيه :

أولا — أن جميع الدول ذات السيادة متساوية قانوناً فى الحقوق.

ثانيا — أن كل دولة لها الحق فى أن تحصل على احترام شخصيتها واستقلالها من جانب باقى اعضاء المجموعة الدولية .

١٢ — وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٤٥ وافق مندوبو خمسين دولة فى مؤتمر سان فرنسيسكو على « ميثاق الأمم المتحدة » الذى ينص فى البند الثانى من الفصل الأول منه فى باب « أغراض الهيئة ومبادئها » على « إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام مبدأ المساواة فى الحقوق وتقرير مصير الشعوب والتوسل بغير ذلك من الأساليب الملائمة لتعزيز السلم » .

وينص فى البند الثالث من نفس الفصل على :

« تحقيق التعاون على حل المشاكل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية وإشاعة تشجيع احترام الحقوق الانسانية والحريات الأساسية للناس جميعا من غير تمييز بين الأجناس واللغات والأديان أو تفريق بين الرجال والنساء » .

١٣ — وفى ٦ يوليو عام ١٩٤٥ اذاع هارولد ستيسن Harold Stassen أحد مندوبى الولايات المتحدة فى مؤتمر سان فرنسسكو أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية تقوم على اثنى عشر مبدأ . والمبدأ الرابع يقرر :

« إن الولايات المتحدة تعتبر أن رخاءها وأمنها مرتبطان برخاء وأمن الشعوب الأخرى . وأنها ستقوى اقتصادها فى نفس الوقت الذى ستساهم فيه فى تحسين مستوى المعيشة فى البلاد الأخرى » .

والمبدأ الحادى عشر يقرر :

« أن الولايات المتحدة تعترف بكرامة الانسان وهى كرامة لازمة لكيانه وبحقه الذى لا يمكن التنازل عنه فى الحياة وفى الحرية وفى البحث عن السعادة »

١٤ — وفى ٢٥ أكتوبر عام ١٩٤٥ أعلن سمنر ولز — وكيل خارجية الولايات المتحدة السابق — « أن رفض الاعتراف بحق الشعوب الشرقية فى الاستقلال سينتهى إلى قيام اضطرابات من شمال أفريقيا إلى المحيط الباسفيكى .... إن الشعب الأمريكى يتبين الآن أكثر من أى وقت مضى أنه لا يوجد أقل أمل فى بناء عالم يسوده السلم والرخاء مادامت لا تزال توجد مئات من ملايين الناس فى آسيا وفى الشرق الأوسط لا يستطيعون نيل حريتهم التى عقدوا العزم على نيلها » .

١٥ — وفى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٥ ألقى الرئيس ترومان خطاباً فى « سنترال بارك » بمناسبة الاحتفال بيوم الحرية أعلن فيه المبادىء الاثنى عشر التى تقوم عليها سياسة الولايات المتحدة الخارجية . فقرر فى المبدأ الثانى :

« نحن نؤمن بما لجميع الشعوب التى حرمت حقوق السيادة والحكم الذاتى بالقوة من حق فى إستعادة هذه الحقوق »[١] .

وقرر المبدأ الرابع :

« نحن نعتقد أن من حق جميع الشعوب المستعدة للحكم الذاتى بأن يسمح لها بأن تختار بحرية نظام الحكم الذى تريد أن تعيش فى ظله دون أن يكون لأحد دخل فى هذا الاختيار وهذا الكلام ينطبق على أوروبا وآسيا وافريقيا مثلما ينطبق على نصف الكرة الغربى »[٢] .

ولقد قدمنا أن فكرة إزالة الفوارق بين أفراد الجنس البشرى قد بدأت أوسع مدى مما نطالب به . ولكنها تواضعت بعد ذلك فاكتفت بإنشاء مجموعات مستقلة من الشعوب المنسجمة . ومما يدعم وجهة نظرنا فى الدعوة إلى إقرار مبدأ « أفريقيا للافريقيين » على أساس إزالة الفوارق التى افتعلتها الحدود الجغرافية غير الطبيعية فى هذه القارة بإملاء من المطامع الاستعمارية ، أن تلك الفكرة السامية التى كان الاسكندر الأكبر أول من فكر فيها — والتى شع ضوؤها من مصر كما ذكرنا — عادت تبدو متسعة الأفق كما بدأت . فهناك من يدعو إلى أن الوقت أزف لإنشاء وحدة مكونة من خمسة عشرة دولة مستقلة من الدول الديموقراطية وهى الولايات المتحدة

---

(١) We believe in the eventual return of sovereign rights and self-government to all peoples who have been deprived of them by force.

(٢) We belive all Peoples who are prepared for self-government should be permitted to choose their own form of Government by their own freely-expressed choice without interference from any foreign source. This is true in Europe, Asia, and Africa, as well as in the western hemisphere.

الأمريكية والمجموعة البريطانية وفنلندة وفرنسا وهولندة وبلجيكا وسويسرة ودنمارك والنرويج والسويد . وليس الغرض من هذه الدعوة إنشاء عصبة أمم أو عقد تحالف بين هذه الدول وإنما الغرض خلق «اتحاد» Federation من الطراز الأمريكى له سياسة خارجية واحدة وعملة واحدة وجيش واحد ورقابة واحدة على التجارة الداخلية والخارجية وجنسية واحدة [١] .

ولا شك أن انتصار الديمقراطية فى الحرب العالمية الأخيرة هو أكبر مبرر ومدعم لمبدأ « أفريقيا للافريقيين » فاذا كانت « الديموقراطية هى حركة مضادة تتطلب حماية الفرد من الدولة . فهى ضد الفاشستية وضد النازية وضد الشيوعية وضد الحرب . لأنه لا توجد حرية فى دولة خاضعة لنظام الحكم العرفى وعلى هذا فهى انكار لحق الدولة فى التدخل فى حياة الفرد إلا فى سبيل المصلحة العامة وبموافقة المجموع » [٢] فان من السهل ادراك أن هذه الديموقراطية تستدعى من باب أولى حماية الدولة من تدخل دولة أخرى فى شؤونها الخاصة . وحماية مجموعة شعوب من تدخل مجموعة شعوب أخرى غريبة عنها فى شؤونها الخاصة .

وهذا الشعور بوجوب حماية القارة الأفريقية من الشذوذ السياسى والجغرافى الذى افتعلته المطامع الاستعمارية ، قد أثار سمطس Smuts رئيس وزارة اتحاد جنوب أفريقية فصرح أمام برلمان بريتوريا بأن « أفريقيا على وشك مواجهة عهد جديد فى تاريخها وأنها ستصطدم بمشاكل لا تقل تعقداً عن مشاكل القارات الأخرى وأن النظام الإستعمارى تشوبه

---

(١) Clairence K.Streit : Union Now. — وقد ذكر H.G.Wells عند اشارته لهذا الكتاب فى كتابه The Outlook for Homo sapiens أنه أثار اهتماما عظيما فى أمريكا وبريطانيا .

(٢) O. H. Wells — المرجع السابق ص ٣٧ .

نقائص عديدة وتصرفات شاذة تتنافى مع المنطق كالابقاء مثلا على بلاد واقعة تحت الحماية داخلة فى نطاق اتحاد جنوب أفريقيا . إن خارطة أفريقيا عجيبة من العجائب . إننى أعترف بأنى أشعر بأن العالم مدين بشىء من الفضل لا لجنوب أفريقيا فحسب بل لكل أفريقيا . فقد ساهمنا بنصيب فعّال فى الحرب . والطريقة التى أدينا بها واجبنا فى ظروف عصيبة أغلب الوقت تعطينا الحق فى ان نطالب بشىء » وقد ختم كلامه بقوله « إننا نضع بطبيعة الحال جنوب افريقيا فى المكان الأول من اهتمامنا ، فمصالحنا ومصالح جيراننا الأقربين تنال أكبر قسط من اهتمامنا »(١) .

وقد صرح مسيو فيليكس ايبوى حاكم افريقيا الاستوائية الفرنسية — الذى توفى اخيراً فى القاهرة — فى حديث نشرته صحف جوهانسبرج عن الحركة الجديدة التى ترمى إلى توثيق التعاون بين بلدان افريقيا وأقطارها بأنه « ليس هناك أى تفكير فى قبول رقابة دولية على افريقيا وانه يأمل أن تتفق الأقطار الأفريقية على تبادل منتجاتها والعمل على تقدمها الصناعى » واقترح أن تؤلف جمعية دائمة من ممثلى البلاد الأفريقية لتشجيع هذه الفكرة

فالطريق ممهد لقبول فكرة « الجامعة الأفريقية » وبالتالى الدعوة إلى إقرار مبدأ « أفريقيا للافريقيين » . ومن الصعوبات التى قد تقف فى وجه هذه الجامعة وهذا المبدأ المنشودين ما يحتمل من أن تأخذ السياسة الاستعمارية العزه بالاثم فتتشبث بما تزعم أنه لها شبه حق مكتسب ! ومما

---

(١) خطاب الجنرال سمطس فى آخر مارس عام ١٩٤٤ — جريدة La Bourse Egyptienne عدد ٦ ابريل سنة ١٩٤٤

يؤيد هذا الاحتمال أن حزب العمال الانجليزى — وهو أقرب الأحزاب الانجليزية إلى المبادىء الديموقراطية — قد أعلن عن اتجاه سياسته الاستعمارية فى مذكرة نشرها عقب المؤتمر الذى عقد فى أواخر عام ١٩٤٣ جعل عنوانها « نظام المستعمرات الدولى » فقرر أن امتلاك أراض مستعمرة يعطى للدولة التى تملكها مزايا « ستراتيجية » واقتصادية كبيرة. وإن كانت هذه المزايا قد بالغت فيها الدول التى لا تملك مستعمرات . وأن امتلاك أراض مستعمرة يكاد منذ زمن طويل يكون احتكاراً ناله عدد قليل من الدول الأوروبية . ولذا اعتبرت الدول الأخرى — وخاصة التى تمتاز بنظام اقتصادى متقدم — حرمانها من الاستعمار عملاً لا عدل فيه ! وحاولت مراراً القضاء على الاحتكار الاستعمارى الذى نالته بعض الامبراطوريات الأوروبية . وأشارت المذكرة إلى أنه لما كانت الأراضى الصالحة للاستغلال قد تم توزيعها فانه لا يمكن إلا التماس حلين لهذه المشكلة : الالتجاء إلى القوة لغزو أملاك الغير أو توزيع الإمبراطوريات الاستعمارية توزيعاً جديداً سلمياً . وقد استبعدت المذكرة الحل الثانى باعتبار أن هذا التوزيع الجديد قد يخل بتوازن المواد الأولية . واقترح حزب العمال حلا لمشكلة الاستعمار الأخذ بالاتفاقين المعقودين فى برلين عام ١٨٨٥ وفى بروكسل عام ١٨٩٠ الخاصين بحوض الكونجو واللذين أدمجا فى معاهدة « سان جيرمان آن لاى » عام ١٩١٩ وهذه الاتفاقات ترمى إلى تطبيق نظرية « الباب المفتوح » . فهى تعطى لكل طرف فيها الحق فى الحصول على المواد الأولية دون السماح بتفضيل تجارة دولة معينة على دولة أخرى . وتقترح مذكرة حزب العمال الانجليزى التوسع فى تطبيق نظرية الباب المفتوح على جميع المستعمرات وإقامة رقابة دولية عليها

مستوحاة من نظام الانتدابات الذى ابتدعته عصبـــة الأمم عقب الحرب العالمية الماضية [١]

ولـكن حزب العمال ينسى — أو يتناسى — أن هذه الأراضى التى خضعت قهراً لنظام الاستعمار ليست ضيـاعاً تملـكها الإمبراطوريات الأوروبية . وأن أهل هذه الأراضى هم — من وجهة النظر الديموقراطية — أصحاب الرأى الأول والأخير فى تقرير مصيرهم واختيار شكل حكومتهم . وتحديد موقفهم من المواد الأولية التى ينتجونها وتبين مصلحتهم الحقيقية فى طريقة توجيه تجارتهم وصناعتهم .

ولا أدرى إذا كانت سياسة حزب العمال الانجليزية الاستعمارية قد تطورت فى العامين الأخيرين تطوراً تأثر باعتبارات الحرب العالمية الأخيرة وبالمبادىء السامية التى أوحت بقرارات مؤتمر موسكو فى أكتوبر ١٩٤٣ و « يالتا » فى فبراير ١٩٤٥ فقـد قرر مؤتمر الحزب الذى عقـد فى « بلاكبول » فى مايو ١٩٤٥ فى صدد سياسة الحزب الخارجية ، تأييـد مبدأ « الأمن الدولى الذى تشترك فى اقراره كافة الدول ويستند إلى هيئة عالمية تتوفر لها الارادة والقوة اللتان تمكنانها من منع الاعتداء والتى يجب على بريطانيا أن تتأهب الاشتراك فيها بالسلاح والرجال . والحزب يقطع على نفسه عهداً لا نقض له بألا يحرض الدول الصغيرة على التحرش بالدول الـكبيرة » ولـكن الظاهر — إلى الآن — أن هذا الحزب الذى لبرنامجه مسحة ديموقراطية لا تزال تعوزه الشجاعة الـكافية لإعلان

---

(١) Arthur Wauters : Le Statut Futur des Colonies, La Bourse Egyptienne, 7 Janvier 1944

سياسة صريحة تنفر من الاستعمار وتنكر أخطاء الماضى وتقر الشعوب المستعمرة أو الموضوعة تحت الحماية أو الانتداب على حقها فى حكم نفسها بنفسها. قد تقف إذن بعض الصعوبات فى وجه مبدأ «أفريقيا للافريقيين» الذى ندعو إليه ، ولكن إذا تعاونت مصر — كزعيمة لمجموعة الشعوب السامية الحامية التى تتكلم العربية وتدين غالبيتها العظمى بالاسلام والتى تقع فى شمال خط الاستواء — مع اتحاد جنوب أفريقية — كزعيم لمجموعة الشعوب الآرية التى تتكلم لغات أوروبيـــة وتدين غالبيتها العظمى بالمسيحية وتقع جنوب ذلك الخط — فى الدفاع عن المبدأ والترويج له — إذا تم هذا التعاون بين مصر واتحاد جنوب أفريقيا فانى أومن بأن فكرة « الجامعة الأفريقية » ستخرج إلى حيز التنفيذ فى وقت أقرب مما يتصوره الكثيرون . ومما يساعد على هذا التفاؤل أن الضمير العالمى قد بدأ يشمئز من الأفكار الرجعية والأوضاع العتيقة التى تميز بين الناس بسبب ألوان بشرتهم أو اختلاف أوطانهم من الوجهة الجغرافية . أو تباين دياناتهم .

ففكرة البرتغاليين فى استعمار أفريقيا واستعباد الأفريقيين كانت تقوم على أساس أن ديانة هؤلاء الافريقيين هى ديانة عبيد ! ولذلك فانه كان يحق للافريقى أن يتحرر من الرق إذا اعتنق الدين المسيحى . كما أن الهولنديين الذين جاؤوا إلى « الكاب » بين عامى ١٥٩٥ و ١٦٥٠ كانوا قد تلقوا تربية دينية تقليدية جعلت للدين لديهم أهمية قصوى ، وجعلتهم يتعلقون بديانتهم المسيحية تعلقاً شديداً ويتخذونه حداً فاصلا بينهم وبين ال « هوتنتوت » سكان البلاد الأصليين الذين لم يلبثوا أن حرموا من تلك أراضى بلادهم والذين كانوا يعتبرون أعداء للهولنديين المستعمرين . ولكن نظرية اتخاذ الدين أساساً للتفرقة لاتزال قائمة إلى اليوم فإذا اعتنق أحد

« الهوتنتوت » الدين المسيحى واستوفى اجراءات « التعميد » استطاع أن يتغلب على الفارق الذى يعود إلى اختلاف اللون . وقد ثبت فى أوائل عهد الهولنديين بجنوب أفريقيا أن عدداً من النساء السود اللآتى جىء بهن من « البنجال » بالهند إلى « الكاب » قد سمح للبعض بالتزوج منهن بعد أن اعتنق المسيحية . كما أن الطفل الذى هو ثمرة زواج بين أوروبى وزنجية كان يعد عضواً فى المجتمع الأوروبى و بعد تعليمه « وتعميده » تمنح له الحرية (١)

و يعترف الاخصائيون الأوروبيون فى مشكلة الألوان والأجناس أن الدين الاسلامى يقوم على أساس ديموقراطى وطيد فهو لا يفرق بين الناس بسبب اختلاف ألوانهم (٢) وأنه قد لوحظ أن الأفريقى على استعداد دائم بخدمة العربى المسلم بل أنه شغوف إلى اليوم بخدمته (٣) . الضمير العالمى قد بدأ يشمئز من تلك التفرقة التقليدية الآثمة بين الناس بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو الموقع الجغرافى . فهناك من يذهب إلى أن كلمة جنس race ، كما كانت تستعمل علمياً للتفرقة بين الجماعات الانسانية ، قد فقدت حدة معناها . وأنه من المرغوب فيه أن تستبعد كلمة « جنس » من قاموس العلم (٤) .

وهناك من يذهب إلى أن أرسطو نفسه فى الفصول الأولى من كتابه

---

(١) Mac Crone : Race Attitudes in South Africa-P 7,45 طبعة ١٩٣٧ .

(٢) A. G. Russell : Colour, Race, and Empire-p.13

(٣) Orde Browne : African Labourer-P 14

(٤) Huxley and Haddon - We Europeans-P 91

« السياسة » Politics قد تعرض لنظم الرق التى كانت ضرورة من ضرورات السياسة والاقتصاد فى عهده ولم يعدُ أن قال إن بعض الرجال يجب أن يكونوا عبيدا أينما حلوا ، والبعض الآخر لا يجب أن يسترقوا إلا فى مكان معين و إن بعض العبيد لهم أرواح الأحرار والبعض لهم أجسام الأحرار فقط ولكن أرسطو لم يستطع أن يحكم على جنس بأ كمله بأن يكون مجموعة أرقاء بسبب لا يمكن تغييره هو الدم أو اللون . وفى الواقع يبدو من الصعب أن يجد الباحث فى تاريخ اليونان أو روما أى دليل على التفرقة بين الناس بسبب الجنس أو اللون . ولم تظهر محاولة هذه التفرقة إلا فى القرن التاسع عشر . وكان الغرض من تلك المحاولة تأييد السيادة السياسية والإقتصادية التى كان يزعمها الرجل الأبيض على الأجناس الأخرى وذلك بالسعى لإثبات نوع من السيادة الغريزية فى الجنس الأبيض أو — بتعبير أضيق — فى الأجناس الشمالية Nordic [١]

وقد انتشرت تلك الفكرة الآثمة فى القرن التاسع عشر وأوحت إلى بعض الكتاب بأسس خاطئة للبحث التاريخى فذهب بعضهم إلى أهمية وجوب الدعوة إلى الابقاء على نقاء الجنس الأبيض وزعم أن كل المدنيات قد انحدرت من ذلك الجنس وأنه لولاه لما ظهرت مدنية قط على وجه الأرض [٢] وهى أسس لا تستدعى عناء الرد عليها من الوجهة التاريخية العلمية . فقد أثبتنا فى باب « مصر : مقبرة الغزاه » أن أول مدنية ظهرت

---

(١) A. G. Russell — المرجع السابق ص ١٤ .

(٢) Arthur de Gobineau: *Traité sur l'inegalité des races humaines* أجزاء أربعة ، صدرت بين عامى ١٨٥٣ — ١٨٥٥ .

على أرض أفريقيا فى مصر . وعلى يدى جنس غير الجنس الأبيض الشمالى .

ويذهب آخرون إلى أن أجناس البشر تنقسم إلى مالا يقل عن خمسين مجموعة تختلف كل مجموعة عن الأخرى فى المظاهر الجسدية . وهذه المجموعات إذا قسمت تقسيما أوسع لا يقل عددها عن خمسة عشر [١] ولذلك فمن العبث قسمة الجنس البشرى إلى « أبيض » و « ملوّن » لأن هذه القسمة لا تستند إلى أساس علمى . كما أن تجريد الأفريقى الأسود من الفضائل الخلقية لا يوجد له سند علمى هو الآخر فالأخصائيون فى علم الأجناس يقررون أنه يمتاز بشعوره بالمسؤولية نحو الجماعة التى يعيش فيها وقد تعلّم أن يغرق شخصيته الفردية فى حياة الجماعة التى ولد فيها . وهو لا يتردد فى المساهمة بنصيبه فى مساعدة الضعيف والمسن وفى أداء الجزاء الذى يترتب على ارتكاب أحد أفراد الجماعة التى ينتمى إليها العمل يستحق العقاب وفى احترام الحياة التعاونية التى تعيشها قبيلته . وهو لا يطمع فى الحصول على ثروة شخصية ترتفع به عن مستوى مواطنيه . كما أن زعيم القبيلة لا يستحل لنفسه أن يغتصب أموال القبيلة وأراضيها ويتصرف فيها كما يهوى . وليس لهذا الزعيم أن يتنازل لأجنبى عن أموال الجماعة التى يتزعمها لأنه ليس مالكا لهذه الأموال بل انه أمين عليها وكل أحكامه وقراراته يجب أن توحى بها مصلحة المجموع لا المصلحة الشخصية . والأفريقى يعد الكرم فضيلته الرئيسية . وهو بالاختصار يعيش فى جماعة تعد خير تصوير لنظرية « كروبوتكين » عن « المساعدة المتبادلة » Mutual aid ولذلك يشعر بتغيير مؤلم عند مايرغم على مفارقة هذين المبدأين وينتقل الى عالم غريب

---

(١) Haddon: The races of mankind.

عنه وهذه الغرابة تبدو أشد لا فى قيام هذا العالم على أسس ميكانيكية بل فى جهل هذا العالم بدين الأفريقى وشعوره نحو قبيلته وآدابه ونظرياته الخلقية (١)

ويخيل إلى الكثيرين أننا كلما اقتربنا من خط الاستواء وجدنا أن الأهالى أسود بشرة . ولكن العلم لا يقر هذه الفكرة قط. فليس صحيحاً أن الذين يعيشون فى الجو الأشد حرارة تكون بشرتهم أشد سواداً .فقد لاحظ لورد راجلان Raglan أن الزنوج الذين يعيشون فى وادى نهر « امازون » — وهى منطقة من أشد مناطق العالم حرارة — ليسوا سوداً . ولكن لونهم مزيج من الصفرة والاسمرار . يقرب من لون «الاسكيمو » الذين يعيشون فى منطقة القطب وهى من أشد مناطق العالم برداً . بينما أهل جزيرة سيلان أقل سوادا من أهل جنوب الهند الذين هم أبعد منهم عن خط الاستواء . ويقرر ايهرليخ Ehreulich ان الذين يعيشون فى جو بارد جاف معرضين لأشعة الشمس قد يكونون أشد سواداً من الذين يعيشون فى جو حار ورطب ولكن منازلهم داخل غابات لا تتخللها أشعة الشمس

كما أنه لم يثبت إلى اليوم بطريقة علمية أن الجلد الأسود يعطى لسكان المناطق الاستوائية وسيلة أفضل من وسائل الوقاية من حرارة الجو أو من قوة أشعة الشمس الكيماوية الخطرة . وقد يبدو أن جلد الزنجى أسمك من جلد الرجل الأبيض وانه لذلك أقل احساساً بأشعة الشمس ولكن هذا أيضاً لم يثبت كما لم يثبت من قبل أن جلده الأسود قد اكتسب لونه القاتم بسبب أشعة الشمس وبالاختصار يكاد يكون من المستحيل

---

(١) A.G. Russell — المرجع السابق ص ١٨

وضع قواعد علمية لهذا الموضوع [١] ويذهب أيضاً الاخصائيون فى علم الأجناس ومنهم الأستاذ لايد Lyde إلى أن أنف الزنجى العريض وشفتيه الغليظتين وصدغيه اللذين يبدو أنهما يحميانه من خطر ما — كل هذه المميزات الجسدية قد حبته بها الطبيعة لكى يتمكن من أن يستنشق من الأوكسيجين أكبر قدر ممكن ويدخله الى رئتيه لأن كمية الأوكسيجين فى المناطق الاستوائية أقل من كميته فى المناطق المعتدلة الجو. وقد ثبت أن لون البشرة الأسود قد يزول بسبب الظروف الطارئة كالخوف الشديد أو التقدم فى السن أو الاغماء ، ولذلك فليس مما يثير العجب أن يوجد فى المناطق الاستوائية أفراد يميل لون بشرتهم الى البياض كما أن بعض أجزاء جسم الزنجى التى لاتعرض لأشعة الشمس يغلب ألا يكون لونها أسوداً بل أصفراً . والاطفال الزنوج لايولدون سود البشرة وانما يكتسبون هذا السواد فيما بعد . ويفضل الاخصائيون فى علم الأجناس anthroplogists أن يتخذوا الشعر كمقياس لتحديد نوع الجنس وقد وضعت عدة قواعد لاتخاذ شكل الرأس مقياساً آخر لذلك التحديد [٢] ولكن هذه المحاولات قد قضى عليها العلم الحديث القائم على النظرة الواسعة الرحبة إلى بنى الانسان فتقرر بأن علم الأجناس يؤيد النتيجة المستمدة من التاريخ . « فسواء اتخذنا لون الجلد أو العينين أو الشعر أو نوع الشعر أو شكل الرأس أو المقلتين أو الصدغين أو الأنف كمقياس لتحديد نوع جنس ما فان من المستحيل النظر الى ذلك المقياس

---

(١) Gregory:The Menace of Colour

(٢) Haddon: Races of Mankind-P.5

المستمد من المميزات الجسدية كأساس علمى ثابت الاهتداء الى طراز نفسى أو اجتماعى معين يتسم به البشر» (١)

ولم يثمر تألم الضمير العالمى من تلك التفرقة الأثيمة بين الرجل الأبيض وأخيه الأسود عن هذه الحقائق العلمية فحسب بل انه تعداها الى كشف إجرام السياسة الاستعمارية إذ يقرر البعض أنه اذا كانت فرنسا قد نجحت فى اكتساب ولاء بعض زنوج أفريقيا فانها فعلت ذلك بعد ان جعلت اولئك الزنوج يدفعون الثمن غالياً بتعريض جنسهم للخطر وذلك بسماحها لرؤساء اولئك الزنوج بالتدرج فى المناصب الفرنسية و بث نفسية الرجل الأبيض فيهم و بتحريضهم على استغلال مواطنيهم اقتصادياً و بذلك يصبحون « العبيد العقليين » لفرنسا . ولا يعودون يفكرون فى العمل على تقدم جنسهم خارج النطاق الذى وضعته الحكومة الفرنسية أو النظم الاقتصادية الفرنسية (٢) ولا شك أن كل تعليم نشرته فرنسا فى مستعمراتها الافريقية إنما رمت من ورائه إلى تحقيق غرض سياسى لا إلى رفع مستوى الافريقيين .

وليس هذا الاثم قاصراً على فرنسا فان يقظة الضمير العالمى قد دفعت المؤرخين الألمان إلى كشف الستار عن فظائع الاستعمار الألمانى نفسه فقرروا أن التصميم على استعمار جنوب غرب افريقيا لا يعنى إلا شيئاً واحداً هو إرغام القبائل على هجر الأراضى التى كانوا يعيشون ومواشيهم على حشائشها لكى يستولى الرجل الأبيض عليها . (٣) وكانت نتيجة هذا الاستعمار

---

(١) Maciver : Community, p. 275

(٢) Foreign Affairs, April 1925, — W. E. B. Dubois.

(٣) Paul von Rohrbach : Deutsche Kolonial Wirtschaft, Steer : — Judgment on German Africa

الأثيم أن هبط عدد الأهالى الأصليين فى عام ١٩٠٥ من تسعين ألفاً إلى خمسة عشر ألفاً وبعد أن كانت الأراضى التى يملكها أولئك الأهالى ٣٢٢ ألف ميل مربع هبطت إلى أربعة آلاف ! ؟

وقد تنبه بعض المفكرين الذين عالجوا مشكلة الأجناس والألوان إلى أن الطفل الذى ينشأ فى إحدى الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة يتعلم أن ينظر إلى الانسان نظرة عامة ولكنه لايلبث أن يتعلم التفرقة بين الرجل الأبيض والزنوج وهذه التفرقة تكبر وتضخم بينما يهمل التفكير فى أوجه الشبه بين بنى الانسان الى حد أن يصبح فى حالة عقلية تحذره من خطر استيعاب معنى كلمة « الانسان » بدون التفريق بين النوعين [١] واعترفوا بأن التعليم فى الوقت الحاضر هو الذى يشدد الشعور بتلك التفرقة ويساعد على إذكاء روح الحقد بين بنى الانسان باعتماده على بعض المظاهر التاريخية . أو بجعل « شرير » القصة المسرحية أو السينمية رجلا أسود . وباغفال المتولين شؤون التربية ، فكرة تعليم النشء مبدأ التعاون بين الأجناس والألوان [٢] .

ومما يثير الانتباه أننا نجد نسبة الأوروبيين فى مستعمرات أفريقيا المختلفة تافهة ضئيلة لاتكاد تذكر فهى على التوالى بالنسبة لكل مائة ألف أفريقى : ستة من الاوروبيين فى أوغندة وستة فى نيجيريا وتسعة فى ساحل الذهب وعشرة فى افريقيا الاستوائية الفرنسية وخمسة عشر فى افريقيا الغربية الفرنسية وستة عشر فى تنجانيقا وأربعة وعشرين فى الكونجو وخمسة وستين فى كينيا وأربعة وثمانين فى روديسيا الشمالية . فإذا

---

(١) McDougall—Psychology p.95

(٢) A. G. Russell — المرجع السابق ص ٣٠

نظرنا إلى هذه النسبة من زاوية أخرى لتبين لنا ان عدد سكان افريقيا يقدر بين ١٣٨ مليونا و١٦٣ مليونا من الأنفس ومساحتها نحو ١٢ مليونا وربع المليون من الأميال المربعة . وأن البريطانيين — ومن بينهم أهالى اتحاد جنوب افريقيا — يحكمون ربع مساحة القارة الافريقية وثلث السكان . وأن الفرنسيين يحكمون نفس النسبة وأن البلجيكيين يحكمون واحدا على ثلاثة عشر من المساحة وواحداً على تسعة عشر من السكان[1]

وقد ثبت من التقرير الذى وضعته اللجنة التى شكلتها وزارة المستعمرات الانجليزية عام ١٩٣٦ من «المجلس الاقتصادى الاستشارى» والتى نشر تقريرها عام ١٩٣٩ انه « فى جميع أجزاء المستعمرات التابعة للامبراطورية اتضح أن إيراد الغالبية العظمى من الأهالى أحط بمراحل من الحد الأدنى الضرورى للحصول على الغذاء الصحى الكافى » وقد قطع هذا التقرير بأن الغذاء غير الصحى هو السبب الرئيسى فى ارتفاع نسبة الوفيات بشلل الاطفال وهى النسبة التى تزيد عن مائتين فى الألف من المواليد فى معظم أنحاء الامبراطورية وأحيانا تتجاوز الثلاثمائة فى الألف وهذه النسبة تصل إلى عشرة أضعاف أمثالها فى قطر كاستراليا الجنوبية حيث لاتتجاوز هناك ٣٠ر٥ فى الألف وهى فى انجلترا وويلز لاتتجاوز سبعة وخمسين فى الألف

وقد ثبت رسمياً من الاحصاء الذى اجرى فى ٣٠ يونيو عام ١٩٣٨ فى « مدينة الرأس » Capetown ان وفيات الذين تقل أعمارهم عن خمسة وعشرين سنة لم تتجاوز ١٧ فى المائة بين الأوروبيين ولكنها وصلت الى

---

(١) The Atlantic Charter and Africa P112, A, G. Russell : Colour, Race, and Empire. P31

٥٨ فى المائة بين الأفريقيين . وبلغت نسبة الوفيات بين هؤلاء الأهالى بسبب السل ستة أضعاف النسبة بين الأوروبيين ووصلت هذه النسبة الى عشرة أضعاف فى اتحاد جنوب افريقيا عام ١٩٤١ (١)

وقد بلغ استغلال الشركات الأوروبية للمستعمرات الأفريقية إلى حد يقشعر منه الضمير الانسانى ، ففى روديسيا الشمالية مثلا ازدهرت خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة صناعة استخراج النحاس . وبلغ ثمن الكميات التى باعتها الشركات التى تستغل مناجم النحاس الأفريقية ٢٠١٠٠٠٠ و٨ فى عام ١٩٣٨ ومن هذا المبلغ لم ينل العمال الوطنيون الذين تولوا حفر المناجم واستخراج المعدن من جوف الأرض الا نصف مليون من الجنيهات بينما استولى حملة الأسهم من الممولين الأوروبيين على ٣٫١٠٠٫٠٠٠ جنيها وفى عام ١٩٣٥ دفع منجم واحد ربحاً قدره ٦٢ فى المائة لحملة أسهمه . وكل هذه الأرباح معفاه من أية ضريبة ! ويبقى بعد ذلك أن تعلم أن أجرة العامل الأفريقى اليومية تتراوح بين تسعة بنسات وشلن وبنسين بينما أجرة العامل الأبيض لاتقل يوميا عن ثمانية وعشرين شلنا وست بنسات ! وليس هذا التفريق الظالم قاصراً على روديسيا بل أنه قاعدة فى جميع مستعمرات افريقيا فان العمال الافريقيين فى مناجم ساحل الذهب يتناولون أجراً سنويا قدره تسعة وعشرين جنيها وأربعة شلنات بينما يتناول العمال الأوروبيون ستمائة وستة وخمسين جنيها وخمسة عشر شلناً !

ويعتبر المفكرون الأحرار — حتى من الانجليز — مستعمرة كينيا

---

(١) مجلة The Cape Town Sun عدد ٧ نوفمبر عام ١٩٤١ ومجلة South African Outlook عدد ١ اكتوبر عام ١٩٤١ . وقد تساءلت هذه المجلة « لماذا يدفع أهل الطفل بمجرد ولادته الى احدى شركات التأمين قسطا خاصا بنفقات دفنه ؟ »

نقطة سوداء فى تاريخ الامبراطورية سواء من جهة انحطاط أجور العمال الأفريقيين فيها أومن جهة نظام السخرة المفروض على أولئك العمال . فأجرة العمل فى مناجم الذهب لاتتجاوز إحد عشر شلنا وست بنسات فى الشهر . وكثيرون من العمال يقضون نصف العام فى مثل هذا العمل لكى يمكنهم دفع الضرائب التى تحصلها الحكومة منهم وهى لاتقل بالنسبة للفرد الواحد عن ثلاثين شلنا فى العام ولكى يستعيضوا به عن النقص فى محصول قطعة الأرض الصغيرة التى تسمح الحكومة لهم بزراعتها والتى تتراوح مساحتها بين ثلاثة أفدنة وأربعة . فاذا عجز الأفريقى — وحده — عن الوفاء بكل هذه الالتزامات عمد الى تسخير أولاده . وينص القانون رقم ١٩٣ لسنة ١٩٣٧ على أن « الأب . . . . أوالولى الشرعى على الطفل الأفريقى . . . يجوز له إذا كان هذا الطفل قد تجاوز عشرة أعوام من عمره أن يستخدمه برضاه كصبى فى أحد الأعمال لمدة لاتتجاوز خمسة أعوام » فماهو مصير الأطفال الافريقيين طبقا لهذا القانون ؟ إنهم قد يرسلون الى جهات تبعد خمسمائة ميل عن بيوت آبائهم ويعيشون هناك بدون رقابة حازمة ويتعرضون للوقوع فريسة للموبقات الخلقية وادمان الخمر . وقد تألفت لجنة حكومية لبحث فضيحة ادمان الاطفال الافريقيين على الخمر فلم تتورع عن أن تقرر أن أولئك الأطفال قد « تعاطوا الخمر فعلا ولكن هذا لايستحق أن يسمى عملا فاضحاً ! » (١)

والدليل القاطع على عدالة مانطالب به من جعل «افريقيا للافريقيين» وادماج هذه القاعدة بين قواعد القانون الدولى العام التى لايجوز الخروج عليها أو المساس بها كما سبق أن أدمجت قاعدة « أمريكا للامريكيين » التى

(١) A. G. Russell : P 45

نادى بها مونرو — ان كل الجهود التى بذلت للارتفاع بمستوى الافريقيين وتحسين صحتهم . ونشر العلم بينهم إنما بذلها الافريقيون أنفسهم . وأن هذه الجهود قد قوبلت — على الدوام — بمعارضة شديدة من الاوروبيين المستعمرين . ففى عام ١٩١٥ قام Chilembwe — وهو أحد أهالى نياسالاند Nyasaland بحملة ضد الشروط المرهقة التى يفرضها أصحاب الأعمال على العمال الوطنيين . وفى عام ١٩١٩ قام Kadalie وهو الآخر من أهالى نياسالاند بمحاولة لتحسين حالة أبناء جنسه البانتو Bantu فأنشأ «الاتحاد الصناعى والتجارى لعمال جنوب أفريقيا» وقد أثبتت المحاولتان أن أهل تلك الأقطار من جنوب أفريقيا أذكياء وشجعان وأن الأمر لايستدعى أكثر من تسهيل سبل العلم لهم [١] وقد أصابت تلك الجهود الافريقية بعض التوفيق فى بادىء الأمر حتى قيل إن هيرتزج Hertzog — وهو أحد زعماء الأوروبيين فى جنوب افريقيا — كان يؤيدها ولكنه لم يلبث أن حاربها بشدة بل بتوحش عندما تولى رئاسة الوزارة ولم تكد تنقضى سبعة أعوام على بدء «كادالى» حركته حتى خمدت بعد أن اشترك العمال الأوروبيون مع السلطات الحكومية فى إخمادها

وهذه الحركات الفكرية الوطنية التى يتولى قيادتها أفريقيون صميمون لم تقتصر على جنوب أفريقيا بل تعدته إلى غيره من أقطار أفريقيا . ففى «سيراليون» نظم « أوريا باتلر» Uriah Butler حركة اضراب عام ١٩٣٧ فانتهزت السلطات الحكومية فرصة الحرب الأخيرة واعتقلته وقيل إنها نفته إلى جزيرة صغيرة بقرب تريفيداد . كما أن تلك السلطات لم تكتف بحبس وليم جونسون William Johnson رئيس «اتحاد مؤتمر عمال سيراليون»

(١) James : History of Negro Revolt. P. 59

بتهمة القذف فى مقال نشره قبل اعلان الحرب ببضعة شهور بل انها اعتقلته طول مدة الحرب بمقتضى قوانين الدفاع عن المستعمرات .

ومن المبادىء المالية المسلم بها فى ميزانية اتحاد جنوب أفريقيا عدم الزام حكومة الاتحاد المركزية ولا السلطات الحكومية فى الأقاليم بأية أعباء مالية تنفق على تعليم البانتو أى الافريقيين الأصليين أو على الخدمات الاجتماعية . فلا توجد أية فكرة عن معاملة هذا الافريقى كمواطن له حقوق المواطنين فى وطنهم و بالتالى لم يخطر ببال المشرع المالى أى خاطر عن إلزام الأوروبيين بدفع ضرائب تنفق على أهالى البلاد الأصليين (١)

هذا هو الوضع المذل الذى أراد الأوربيون البيض المستعمرون أن يضعوا فيه أهل أفريقيا الأصليين وأصحاب أرضها ولعل خير ما يعبر عن شعورهم هو قول المؤرخ اليونانى ثيوسيديد Thucydides « قد يكون من مصلحتكم أن تكونوا سادتنا . ولكن كيف يمكن أن يكون من مصلحتنا أن نكون لكم عبيداً ؟ » (٢)

لذلك يجب ألا يغرب عن أذهاننا أن هذه القارة التى ولدنا على أرضها ونعيش فيها هى منبع خير عميم أثار جشع أقوى دول العالم . فمصر هى ثالث دولة فى العالم تنتج القطن . وقطنها هو أجود أنواع القطن والترنسفال هى أكبر دولة فى العالم تنتج الذهب ورغم أنه لم يكتشف فى مقاطعة Rand إلا عام ١٨٨٥ إلا أنها أصبحت تصدر ٢٥ فى المائة من ذهب العالم (٣)

---

(١) Macmillan : Africa Emergent, P. 183

(٢) Thucydides : Histore de la guerre du Péloponêse T. 4

(٣) يذكر الدكتور حسن كمال فى بحثه عن « مصر والسودان » مجلة « المقتطف » عدد ابريل ١٩٣٦ أن قدماء المصريين هم أول من عرفوا فضل الذهب وبذلوا غاية جهدهم فى استخراجه مهما بعدت مناجمه عنهم وأن ديودورس الصقلى وصف =

ومناجم كمبرلى Kimberly بجنوب أفريقيا تنتج ٨٠ فى المائة من ماس العالم . ومراكش والجزائر تصدر الحديد . وسائر أقطار أفريقيا تنتج قدراً عظيما من المواد الأولية التى لاغنى للعالم عنها . فعلى الافريقيين أن يؤمنوا بعدالة قضيتهم . و بأن أول مدنية شع ضوؤها على العالم نشأت على أرضهم فى مصر . وأن العالم ظل يتخبط فى ظلمات الجهل قروناً عديدة بينما كانوا هم — كما تشهد آثارهم — يكتبون أول صفحات المجد فى تاريخ الحضارة . وأن يعتمدوا على أنفسهم فى تحقيق آمالهم البديهية المشروعة لأن « الجواد يحمل الانسان الى حيث لاتستطيع قدماه أن تحمله . والسيارة تحمله إلى أبعد مما يستطيع الجواد أن يحمله ، ولكن أية سيارة ليست أفضل من قلب الانسان الذى يقوده » (١)

فاذا امتلأت قلوب الافريقيين إيمانا بعدالة قضيتهم فان أية قوة فى الوجود لاتستطيع أن تثنيهم عن تحقيق مطالبهم لأن الضمير العالمى أصبح يوقن معهم بأنه « لن يكون هناك سلم دائم ولا أى احتمال بتحقيق سلم عادل مادامت الشعوب المحكومة والمستغلة بواسطة أية حكومة غريبة عنها ضد إرادتها لم تسترد حريتها » (٢)

= مقبرة يغلب أنها لرمسيس الثانى تمثل الملك يقدم للآلهة مقادير من الذهب تقدر بنحو ثمانين مليونا من الجنيهات .

(١) Ernest Hemingway :Men at War

(٢) Ernest Hemingway ; For whom the bell tolls